في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الثالث عشر

الطبعة السابعة

١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

مزيدة ومنقحة

دار

إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

والنص صريح هنا فى موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلا فى هذه الحقيقة ولا جدالا.

* * *

ولا يزيد السياق القرآنى شيئا على هذا المشهد . لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة . ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب . ولا متى كانت نبوته التى أشار إليها وهو يقول :

« آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » . . ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود فى هذا الموضع . فحين يصل به السياق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود فى أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

« ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد . سبحانه . إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه فى مولده . . ذلك هو فى حقيقته وذلك واقع نشأته . ذلك هو يقول قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون . يقولها لسانه ويقولها الحال فى قصته : « ما كان لله أن يتخذ من ولد » تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولدا . والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة . والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معينا . والكائنات كلها توجد بكلمة كن . وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . . فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين . . وينتهى ما يقوله عيسى – عليه السلام – ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » . . فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير . . وهذا هو المقصود بذلك التعقيب فى لغة التقرير وإيقاع التقرير :

* * *

إننا لنتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم - ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود - وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة . . يرونها تحمل طفلا !

« قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ! »

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : « يا مريم لقد جئت شيئا فريا » فظيعا مستنكرا. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير : « يا أخت هارون » النبى الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل . فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها وذلك الفعل الذى تقارفينه ! « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » حتى تأتى بهذه الفعلة التى لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا !

وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التى لقنها إياها :

« فأشارت إليه » .. فماذا نقول فى العجب والغيظ الذى ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ؛ ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها !

« قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » . .

ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى :

« قال : إنى عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وهكذا يعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة . وليس هو إلها كما تدعى فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة .. ويعلن أن الله جعله نبيا ، لا ولدا ولا شريكا . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . .